المبحث الثانى

الشاعر المصور

إن من يعيش مع المتنبى من خلال أشعاره يصل إلى نتيجة مؤداها أن الرجل يعتبر بحق قمة عالية بين الشعراء المصورين ، فقوة نفسه ، ويقظة مداركه ، وذكاء عقله ، وحدة مشاعره ، وتمكنه من لغته ، وإحاطته ـ بأسرارها إحاطة لا تتوفر إلا له ومن يلحق به من المبدعين ممن هم على طرازه وجسارة فؤاده ، وشجاعة قلبه ، وقدرته على اقتحام المصاعب ، وصبره على الشدائد ، ورحابة خياله ، وانطلاقه ، واتساعه ، وتمكنه من تشكيل المادة التى يلتقطها تشيكلا فنيا ، وعرضها عرضا مؤثرا فى ثوب جميل مثير .

كل هذا قد اجتمع فى شخصية الرجل مع نفس غريبة طامحة معتدة لا تتقهقر أمام هول ، ولا تنثنى أمام خطر ، وهذا وغيره قد تعاون وتناصر فى شق طريق للشاعر يتفرد به ، ويسلكه فى عرض أفكاره ، وصوره ، عرضا أدبيا ناجحا فيه جدة ، وطرافة ومتعة ، وإثارة مع تظليلها وتلوينها بما تسكبه الصياغة عليها من حرارة ، وقوة وبما تجلوها به فى صورة أروع من حقيقتها وواقعها ، مع طغيان جانب المشاعر عنده طغيانا واضحا ترتفع معه درجة التأثير النفسى ، فما عرف به الرجل من حدة فى الانفعال ، وثورة ، وهياج ، وتوتر ، وغضب قد أعان وساعد إلى حد كبير على التقاط صوره الرائعة ، وكلماته الجزلة القوية المعبرة مع وصل هذه الصور بحياته هو بما فيها من حركة دائبة مستمرة وبما تخللها من يأس ، ورجاء ، وفرح ، وحزن ، وحرية ، وسجن ، ورضا ، وغضب ، وآمال وآلام ، وعنف ، ولين مما يصح معها القول بأن صور المتنبى هى المتنبى الذى تجلت شخصيته فيما مازج شعره من قوة متمردة وفيما شاب كلامه من روح عاتية وبما اشتعل فى قلائده من نار متلظية حامية ، وبما تقذف به ألفاظه من حمم متوهجة ، وبما تنطوى عليه جوانحه من ثورة عاصفة ، ولقد استطاع أن يصور بالحقيقة كما يصور

بالخيال فما تناثر فى ديوانه من حكم وأمثال يرسلها إرسالا ويبعث بها سهلة بسيطة من غير تعمل ولا تصنع وكأنما يمتح الرجل من بحر يبعث إليه بلآلئه وجواهره فيضمها إلى ما عونه ويطلقها إطلاقا يتناقلها الناس ، ويحفظونها ، ويجد لها عندهم مكانا طيبا ويتقبلونها تقبلا حسنا ويذيعونها فى كل مكان وينطقون بها وتجرى بها ألسنتهم وأقلامهم وتجد فى حكمته غوصاً فى أعماق النفس ، وسبرا لأغوار الشعور ، وتغلغلا فى مطاوى الرصيد المذخور من تجارب الأحياء ، وإدراكا واعيا لأسرار الطبائع ، انظر إلى التصوير بالتشبيه فى قول المتنبى مما ترى فيه من أثر الفهم العميق لحقيقة الموت وكيف يضع حدا للمطامع والأحقاد؟وكيف يستوى أمامه الجميع؟ الواجد والفاقد من كان شيئا ومن كان هملا من كان طبيبا واعيا فاهما ومن كان فَسْلاَ غبيا جاهلا ، بل قد يموت الطبيب العالم ويبقى الغبى الجاهل وفى ذلك تصوير لضعف الإنسان أى إنسان أمام قدر الموت وحتميته وذلك فى قوله[1] :

يَمُوتُ رَاعِى الضَّأنِ فِى جَهْلِهِ ... مَوْتَةَ (جَالِينُوسَ) فِى طِبِّهِ

وَرُبَّمَا زاد على عمره ... وَزَادَ فِى الأَمْنَ عَلَى سِرْبِهِ

وَغَايَةُ المِفْرِطِ فِى سَلْمِهِ ... كَغايةِ المُفَرطِ فِى حَرْبِهِ

وأنت تستطيع أن تعرف من خلال تلك الموازنة التى أقامها الشاعر بين الجاهل العريق فى جهله ، وبين الطبيب البارع فى طبه أن كليهما أمام الموت متساويان(بل إن الجاهل قد يزداد عمرا وسلامة لا يصل إليهما الطبيب العارف بالأدواء وطرق العلاج وها أنت ذا من خلال هذا التنظير بالتشبيه تعرف أن الموت داء لا شفاء منه ولا دواء له . انظر إلى قوله :

وَغَايَةُ المُفْرِطِ فِى سَلْمِهِ ... كَغايةِ المُفْرطِ فِى حَرْبِهِ

فالكل إلى فناء وموت .

وإذا تجاوزت التصوير بالتشبيه إلى مالا تشبيه فيه ولا استعارة فإنك ترى الشاعر يجيد من خلاله ويتفوق .

---

(١) الديوان ١/٢١٣ .

انظر إلى قوله[1] :

أُتُرَاهَـــا لِكَثْـــرةِ العُشَّـــاقِ تَحْسَـبُ الـدَّمْعَ خِلْقـةً فـى المَـآقِى

فواضح أنه لا تشبيه فى البيت ولا استعارة ومع ذلك فإنك ترى له مذاقا ، وتجد فيه حلاوة دونها كل حلاوة ، مما يجعلك تتساءل هل هذا الإحساس نتيجة لما أشاعه التصريع فى البيت من حسن الإيقاع ، وجميل النغم وعذوبة الجرس؟هل هو الاستفهام الذى أثار الدهشة والاستغراب والتعجب لأنها لا ترق ولا ترحم لمن يبكى من أجلها؟هل هناك وهم قام فى حسبانها فظنت أن عيون الناس خلقت دامعة وأن تلألأ الدمع فيها ، وتساقطه منها فطرة طبيعية؟ هل لأن عشاقها لا يملكون أمام جمالها الطاغى سوى الدموع وأنها ألفت ذلك لكثرة ما يتزاحم على بابها من العاشقين؟

فأصبح منظر الدمع لا يحرك فيها ساكنا ، ولا يثير فى فؤادها شفقة ، ولا يبعث فى قلبها رحمة ، ودع هذا الأسلوب بما فيه من ادعاء وتوهم أكسباه جمالا وجعلاه يصعد فى مراقى الإثارة والمتعة قدما ، انظر إلى هذه النفس القلقة الحائرة تتبدى فى تلك الصورة القلقة الحائرة حزنا على من فقدته وألما على من ثوى فى أعماق الثرى[2] :

الحُـــزْنُ يُقْلِـــقُ والتَجَمُّـــلُ يَـــرْدَعُ والـــدَّمْعُ بَيْنَهمـــا عَصـــى طَيِّـــعُ

وها أنت ذا ترى الحزن يبعث بالقلق ويثيره ولكن التجمل يأتى من وراء الحزن ليرده ، ويدفعه ، وهو فى هيئة النافر المثير الذى يحقق قدرا من القلق ويثير جوا من الارتباك ويأتى التجمل ليحقق التوازن وليردع هذا النافر وليكفكف من غلوائه والدمع بين الحزن والتجمل يتجاذبه العصيان والطاعة الحزن يشده إليه فيطيعه ويحاول التجمل أن يجذبه نحوه فيعصاه ولا يطيعه ، وهكذا يتوارد العصيان والطاعة على شىء واحد هو الدمع وهكذا يستمر القلق فى الصورة بما تحمله تلك الثنائيات المتضادة فى المعنى من عوامل التناقض والتضاد وبعد البيت السابق قوله :

يَتَنَازَعَـــانِ دُمُـــوعَ عَـــيْنٍ مُسَـــهَّدٍ هَـــذا يجـــىء بِهَـــا وهَـــذَا يَرْجِـــعُ

---

(١) الديوان ٢/٣٦٢ .

(٢) المرجع السابق ٢/٢٦٨ .

النَّـوْمُ بَعْـدَ أَبِـى شُـجَاعٍ نـافرٌ واللَّيْـلُ مُعْـيٍ والكَواكِـبُ ظُلَّـعُ
إنِّـى لأَجْـبُنُ مِـن فَـرِاقِ أحِبَّتِـى وتحـس نفسـى بالحمـام فأَشْـجُعُ
وَيَزِيْـدنِى غَضَـبُ الأعَـادِى قَسْـوةً وَيُلِـمُّ بِـى عتـب الصَّـدِيقَ فَـأجْزَعُ

وهكذا تستشعر القلق فى الصورة من خلال تلك النفس القلقة التى صورتها ومثلتها لقد فاض القلق منها على الأبيات فجاءت على هذا النحو الذى تتبدى فيه الحيرة والاضطراب من خلال تلك العناصر التى شكلتها وهى عناصر توافرت فيها الأضداد (عصى وطيع ، يجىء ، ويرجع ، أجبن وأشجع) ومن خلال توارد الضد وضده على موضوع واحد يظهر التوتر ، ويتحقق القلق ، وتوجد الحيرة . وهذه كلها أشياء تلازم الشاعر فى حركة حياته ويتماوج بها شعوره ويزفر بها إحساسه ويزيدها ما تراه من الغضب ، والقسوة والعتب ، والجزع وكلها مثيرات للقلق باعثات على التوتر مما جعل الشاعر يخلع إحساسه على الطبيعة فيجعلها تشاركه مشاعره ، وتشاطره قلقه ، فإذا بها قلقة متوترة فالنوم شارد نافر لا سلطان له عليه والليل معى وكأنما أصابه الإرهاق والتعب فأصبحت حركته بطيئة ، وصار خطوه ثقيلا ، وكأنما تسمرت كواكبه فالليل طويل طويل والكواكب واقفة ، لا تسير والشاعر موجوع ، حزين ودع القلق وانظر إلى الشاعر كيف يصور العاطفة الحزينة من خلال مواقف الحزن ، ومواطن الكآبة ، ومثيرات التفجع والحسرة .

وذلك فى قوله يرثى والدة سيف الدولة[1] :

أَسَـائِلُ بَعْـدَكِ كُـلَّ مَجْـدٍ وَمَـا عَهْـدِى بِمَجْـدٍ عَنْـكِ خَـالِى
يَمُـر بِقَبْـرِكِ العَـافِى فَيَبْكِـى وَيَشْـغُلُه البُكَـاءُ عَـنِ السُّـؤَالِ
بعَيْشِـكِ هَـلْ سَـلَوْتِ فـإنَّ قَلْبِـى وَإنْ جَانَبْـتُ أَرْضَـكِ غَيْـرُ سَـالِ

وأنت ترى كيف يجعل الحزن العاطفة تلتهب ، وتزداد حرارتها من خلال عمق الإحساس بفداحة الرزء ، ووقع الكارثة والأهوال الذى يبعث بها فقد المصاب وهكذا ترى الشاعر وقد استبد به الحزن فأخذ يولول وينوح .

ويتوجه إلى كل مجد ليسأله عنها ، وعن محامدها ، وفضائلها ، وعهده بالأمجاد أنها غير خالية منها هو يسأل المجد وقد لازمها فى حياتها وعرف دقائق أسرارها

---

(١) الديوان ٣/١٤ ، ١٥ .

وهكذا أراك المجد مسئولا ومخاطبا وهو سائل لهذا المجد ثم يخبر فى لوعة شاجية أن العافى يمر بقبرها فيبكى وينشغل بالبكاء عن السؤال وقد نتوقف أمام البيت الثالث فى قوله :

بِعَيْشِكَ هَلْ سَلَوتِ فإنَّ قَلْبِى ... وإنْ حانيْتُ أرْضَكِ غيرُ سَالِى

وترى أن مقامها أرفع من أن تسأل من شاعر هذا السؤال ثم يذكر المكان الذى حلت فيه فى أسلوب خبرى تحس فيه برنة الحزن ونبرة الثكل وهملان الدمع حين يقول[1] :

نَزَلْتِ عَلَى الكَرَاهَةَ فِى مَكَانٍ ... بَعُدْتِ عَنِ النُّعَامَى والشَّمَالِ
تَحَجَّبُ عَنْكَ رائِحَةُ الخُزَامَى ... وَتُمْنَعُ مِنْكَ أنداء الطِّلاَلِ
بِدَارٍ كُلُّ سَاكِنِهَا غَرِيبٌ ... طَوِيلُ الهَجْرِ، مُنبَتُّ الحِبَالِ

وهكذا ترى الشاعر يشبع نوازع نفسه الحزينة من خلال السرد المتفجع والمأساة الدامية وانظر إلى قوله : نَزَلْتِ عَلَى الكَرَاهَةَ فِى مَكَانٍ وكيف احترس بقوله على الكراهة ليشعر بعمق المأساة التى يعيشها بعد أن نزلتِ فى مكان بعدت فيه عن النعاس والثمال وبعد أن حجبت عنها رائحة الخزامى وأنداء الطلال وانظر إلى هذا البيت الذى أجد له طعما حلوا ، ومذاقا جميلا ربما لأنه صور حقيقة تغيب عن الذهن كثيرا وينشغل المرء بغيرها عنها مع أنها أولى بأن يشغل بها عن غيرها مع ما فيها من حروف المد التى تصور هنا هَدْهَدَّة المشاعر وسكون النفس ، وجثوم الحركة ، وخمود الحياة وكأن ما فى تلك الدار من غربة وبعد ، ومن سكون ، وصمت ، ومن هجر وقطع وتطاول ، وقدم قد لمس عند المتلقى وترا حساسا فردّد أنغامه عليه ورجعها على قيثارته :

بِدَارٍ كُلُّ سَاكِنِهَا غَرِيبٌ ... طَوِيلُ الهَجْرِ، مُنبَتُّ الحِبَالِ

وهكذا ترى الكناية عن الاغتراب والبعد تنبع من هذا التركيب ، تبعا ، وتشع منه إشعاعا ويساعد على الإحساس بها هذا النغم الحزين الموجع وبمثل ما ترى

---

(١) الديوان ٣/١٥ .

المتنبى يصور عاطفة الحزن تراه يصور عاطفة الرضا من خلال التشبيه بالنفى فى قوله[1] :

وَمَـا وُجِـد اشْـتِياقٌ كاشْـتِياقِى ... وَلاَ عُـرِف انِكمـاشٌ كَانِكمَاشِـي
فَسِـرتُ إلْيـكَ فِـى طَلَـبِ المَعَـالِى ... وَسَـار سِـوَاى فِـى طَلَـبِ المعَـاشِ

وقد يقلق من هذا الشوق الذى لا يوجد شوق فى مستواه ومن هذا الانكماش الجد فى الأمر الذى يعز أن يكون له نظير ما تراه هنا من هذه القافية الخشنة التى لا تلائم نعومة الشوق ، ولا رقته ولكنه المتنبى الذى تراه يغرم ويعشق النوافر والأوابد .

وانظر إليه كيف قيد نفسه فى ذراه محبة وهياما فأصبح مربوطا بهـا مشدودا إليها ، لا يفارقها ولا يبتعد عنها مما تفيض به نفسه الراضية ومما يعكس رضاها ، وأمنها ، وفرحها ، وذلك فى قوله[2] :

وَقَيَّـدت نَفْسِـى فِـى ذُرَاكَ مَحَبَّـةً ... وَمَـنْ وَجَـدَ الإحْسَـانَ قَيْـداً تَقَيَّـدَا
إذا سَـأَل الإنْسَـانُ أَيَّامَـهُ الغِنَـى ... وَكُنْـتَ عَلَـى بُعْـدٍ جَعلْتُـكَ مَوعِـدا

وانظر كيف جعل الذرى ظرفا ، والإحسان قيدا؟ وكيف قيد نفسه فى الذرى كما قيدها بالإحسان؟ وكيف جعل من ممدوحه موعدا؟ وهكذا ترى الرضا النفسى يشيع فى التصوير ويظهر من ثناياه وانظر إلى قوله[3] :

أَقِـلَّ اشْـتِيَاقاً أَيُّهَـا القَلْـبُ رُبَّمَـا ... رَأَيْتُـكَ تُصـفى الـوُدَّ مَـنْ لَـيْس جَازِيَـا
خُلِقْـتُ أَلُوفـا لَـو رَحَلْـتُ إلـى الصِّبَـا ... لَفَارَقْـتُ شَـيْبِى مُوجَـع القَلْـبِ بَاكِيَـا

فإنَّ الشوق يملأ فؤاده وهو يطلب من قلبه أن يقلل من هذا الشوق وأن يفرق فى منحه بين من يستحق ومن لا يستحق ثم يثبت أنه خلق ألوفا حتى لو أنه عاد إلى الصبا بما فيه من إقبال على الحياة ونضرة وتفتح لتمنى أن يرجع إلى شيبه الذى ودعه وهو باك موجع القلب لفراقه ودع النفس الراضية وانظر إلى النفس الغاضبة بما فيها من عنف ، وثورة وغضب وفحش وتوتر وذلك فى قوله[4] :

فَـذِى الـدَارُ أَخْـونُ مِـنْ مُـومِس ... وَأَخْـدَعُ مِـنْ كِفَّـةِ الحَابِـلِ

---

(١) الديوان ٢/٢١٦ .
(٢) المرجع السابق ٢/٢٩٢ .
(٣) المرجع السابق ٤/٢٨٤ .
(٤) المرجع السابق ٣/٣٣ .

تَفَـــانَى الرِّجَـــالُ عَلَـــى حُبهـــاَ وَمَـــا يحْصُـــلُون عَلَـــى طَائِـــلِ

وأنت ترى النفس هنا فى غضبتها والتهاب مشاعر الحدة فيها ، وهى تقذف بهذا الكلام المر وتفحش فى الهجاء أقذع الإفحاش وأشده ، وأنت ترى فى البيت الأول كيف قامت أداة التفضيل (أخون) بتأدية وظيفة تشبيهية حين أدرك الشاعر العلاقة بين المومس وبين الدنيا ثم رأى أن الدنيا أخون من المومس إفحاشا فى الهجاء ، وإقذاعًا به وترى أداة التفضيل تكثر فى شعر المتنبى وتقوم من خلال السياق بوظيفة تشبيهية تنشأ من إدراك ما بين المفضل والمفضل عليه من صلات وذلك كقوله : فى مدح فاتك مع التعريض بكافور فى قوله[1] :

فَـــأَجْود مِـــنْ جُـــودِهم بُخْلُـــهُ وَأَحْمَـــدُ مِـــنْ حمْـــدِهِم ذَمُّـــهُ

وأشْـــرَفُ مِـــنْ عَيشْـــهِمْ مَوْتُـــهُ وَأَنَفْـــعُ مِـــنْ وُجُـــودِهِمْ عُدْمَـــهُ

فلقد قامت أداة التفضيل بالمقارنة بين المفضل والمفضل عليه بوظيفة تشبيهية حين قارن بين بخله وجودهم وجعل بخله أجود من جودهم وحين قارن بين ذمه وحمدهم وجعل ذمه أحمد من حمدهم وكذلك حين قارن بين موته وعيشهم وجعل موته أشرف من عيشهم كما قارن بين عدمه ووجودهم ، وجعل عدمه أنفع من وجودهم مبالغة فى صفة المدح لفاتك من التعريض بكافور وتثبيت الصور الجزئية فى شعر المتنبى وترى أكثر ما أفرغ الرجل خياله فيه من صور البيان هى الاستعارة وله فى صوغها إبداع انظر إلى قوله فى حديثه عن النوى وقد جعل لها قلبا يخفق بالحب ويذوب من العشق ، وأراك إياها تحب وتعشق ، ينحلها الوجد ويسقمها الغرام . وتستبد بها الغيرة[2] :

مَـلاَمُ النَّـوَى فِـى ظِلْمَهـا غَايـةُ الظُّلْـمِ لَعَـلّ بِهَـا مِثْـلَ الـذَى بِـى مِـنَ السُّـقْمِ

فَلَـوْ لَـمْ تَغَـرَ لَـمْ تـذْوِ عَنِّـى لقـاءكمْ وَلَوْ لَمْ تُرِدْكُم لَمْ تَكُنْ فيكم خَصمى

ثم انظر إليه وهو يستمع إلى حصانه ، وحصانه يحدثه ويلومه إذ كيف ينصرف عن شعب بوان ويتركه إلى الطعان والحرب وذلك فى قوله[3] :

يَقُـــولُ بِشِـــعْبِ بِـــوَّان حِصَـــانِى أَعْـــنَ هَـــذَا يُسَـــار إِلَـــى الطِّعَـــانِ؟

---

(١) الديوان ٤/١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق ٤/٤٧ .

(٣) المرجع السابق ٤/٢٥٥ .

وقبله أصغى إلى غناء الحمام وإلى هديله فى قوله :

إذَا غَنَّـى الحَمَـامُ الـوُرْقِ فِيهَـا أَجَابَتْـهُ أغـانىُّ القِيـَانِ

ثم يسجل أسفه ، لأن أهل الشعب يتكلمون لغة غير التى يتكلم بها وهو العربى الملتزم بعروبته ، المدافع عن لغته ، المعتز بلسانه ، المتطاول ببيانه فيقول :

وَمَـنْ بِالشِّـعْبِ أَحْـوَجُ مِـنْ حَمَـامٍ إذَا غَنَّـى وَنَـاح إلَـى البَيَـانِ

فأهل الشعب أشد حاجة إلى البيان من الحمائم التى تغنى لأنهم لا يبينون ، ولا يفصحون .

ثم انظر كيف يصور النصر المحقق فى قوله[1] :

فَأَنْـتَ حُسَـامُ المُلْـكِ واللهُ ضَـارِبٌ وَأَنْـتَ لِـوَاءُ الـدِّينُ واللهُ عَاقِـدُ

ولك أن تتخيل حساما يتلقاه الله بيمينه ليضرب به وليس الحسام سوى الممدوح وبالمثل لك أن تتخيل لواء يتلقاه الله ثم يعقد به وليس اللواء هنا سوى الممدوح وهكذا ترى النصر المؤزر يتحقق من خلال تنزيل الممدوح بمنزلة الحسام للملك والذى يضرب به هو الله وتنزيله بمنزلة اللواء الذى يعقد فى ساحة الحرب والذى يعقده هو الله سبحانه فالنصر للممدوح محقق ، والهزيمة لخصومه مدمرة ماحقة .

وانظر إلى التناسق فى هذه الصورة كما فى قوله[2] :

كَـأَنَّ الجُفُـونَ عَلَـى مُقْلَتِـى ثِيـَابٌ شُـقِقْنَ عَلَـى ثِاكِـلِ

وَلَـو كُنْـتُ فِـى أَسْـرِ غَيْـرِ الهَـوَى ضَـمِنْتُ ضَـمَان أَبِـى وائِـل

التى جاءت وكأنها صرخة ألم عميقة بسبب ما أحدثه هجر الحبيب له كما فى قوله قبل ذلك[3] :

يُـرَادُ مِـنَ القَلْـبِ نِسْـيَانُكُمْ وَتَـأبَى الطِّبَـاعُ عَلَـى النَّاقِـلِ

وَإِنِّـىَ لأَعْشَـقُ مِـنْ عِشْـقِكُم نُحُـولِى وكُـلَّ امـرئ نَاحِـلِ

وَلَـوْ زُلْـتُمْ ثُـم لَـم أَبْكِكُـمْ بكَيْـتُ عَلَـى حِبِّـى الزَّائِـلِ

---

(١) الديوان ١/٢٧٧ .

(٢،٣) المرجع السابق ٣/٢٣ .

فالصورة فى البيتين السابقين تناسقت ، وتلاءمت ، وتجاوبت مع قوله ؛ هذا الكلام إذ إن البيت الأول من البيتين السابقين تقوم من خلاله صورة تشبيهية تحكى أثر الهجر ، وعذاب البين ، وحرقة البعد وانسياب الدمع حزنا على الحبيب الضائع وعلى الأمل الذاوى المفقود والتشبيه ينتصب من خلال هيئة الجفون وهى مفتوحة فوق مقلته وعدم التقائها نظرا لما تفيض به عيناه من دمع بهيئة الثياب المشقوقة على ثاكل موجعة لا يرقأ لها جفن ، ولا يجف لها مدمع وفى قوله بعد البيت السابق :

وَلَـو كُنْـتُ فِـى أَسْـرِ غَيْـرِ الهَـوى ضَـمِنْتُ ضَـمَان أَبِـى وائِـل

جعل من نفسه أسيرا مقيدا بالأغلال ، وجعل الهوى هو الآسر له وجعل أسر الهوى أسرا لا ينفك قيده ، ولا ينتهى زمنه حين أثبت لنفسه ضمانا كضمان أبى وائل لو أنه كان أسيرا فى غير الحب أما وأنه فى أسر الهوى فلا ضمان ، ولا حرية وإنما قيود وأسر وعبودية وبمثل هذا التحليل ترى الصورة تتعانق مع ما قبلها وتتناسق معها فى توافق وانسجام .

وقد ترى الشاعر وقد امتلأ بموضوعه ، وشحن به مع ماله من جوانب متعددة يريد الرجل أن يتوقف أمامها ، وأن يتناولها كلها فى حديثه لذا تأتى صوره متلاحقة ، ومتتابعة مصورة لهذه الجوانب المختلفة فى موضوعه ، فى صور جزئية متوائمة ومتناسقة كما فى قوله[1] :

كَالْبَـدْرِ مِـنْ حَيْـثُ التَفَـتَّ رأَيْتَـهُ يُهْـدِى إِلَـى عَينَيْـكَ نُـوراً ثَاقِبـا
كَـالبَحرِ يَقْـذِفُ لِلْقَرِيـبِ جَـوَاهِراً جُـودًا ويَبْعَـثُ لِلبَعِيـدِ سَـحَائِبَا
كالشَّمْسِ فَـى كَبِـدِ السَّمَاء وَضَـوْؤُهَا يَغْشَـى الـبِلاَدَ مَشَـارِقًا وَمَغَارِبَـا

فهو قد توقف أمام البدر ، والبحر ، والشمس ووجد فى ممدوحه ما هو موجود فيها فشبه ممدوحه فى هذه الصور مرة بالبدر فى ضياء وجهه وإشراقته وعمومه وأنك كلما التفت إليه أهدى إلى عينيك نورا ثاقبا وشبهه مرة أخرى بالبحر الذى لا يمنع عن أحد عطاء فهو يقذف للقريب بالجواهر ويبعث للبعيد بالسحائب .

---

(١) الديوان ١/١٣٠ .

وفى البيت الثالث : ترى التشبيه يقوم من خلال تشبيهه بالشمس فى عموم نفعها ، وفى شيوع ضوئها - إذ إنه يغشى البلاد مشارقا ومغاربا وهكذا تتعاون الصور وتتناصر وتتلاحم فى تصوير الممدوح بالمشبهات بها الحسية من البدر والبحر والشمس لتدل على وصفه بالكرم وارتفاع الشأن ، ونباهة الذكر ، وعلو القدر ، وإشراقة الوجه ثم ما توحى به من دلالة نفسية ووصلها بالمنشئ ، لأن الممدوح إذا كان يتخطى نفعه الحواجز ، والسدود ، ويغشى المشارق والمغارب ويبعث بالجود والسحائب إلى الحاضر والغائب والقريب والبعيد فإن أجواء المنشئ النفسية ترغب فى أن يصل إليها هذا النفع وأن يعمها هذا الفيض ، وأن ينالها هذا العطاء .

وتتنوع الصور الجزئية فى شعر المتنبى وتتعدد من خلال ما يقدم الرجل من نماذج فى شعره خذ قوله الذى أثار عليه حفيظة النقاد وأغضبهم منه وذلك فى قوله[1] :

بَلِيتُ بِلَى الأَطْلاَلِ إنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وُقُوف شَحِيح ضَاعَ فى التربَ خَاتَمهْ

فالمتنبى يرسم صورة الأطلال الدارسة والرسوم العافية وقد وقف بها شحيح بخيل ضاع خاتمه وصار يبحث عنه فى ترابها ويرى فى ديار الأحبة ما يسترجع معها ذكرياته ، ويراجع عندها أيام عمره وحياته ، لذا يصعد إحساسه بها ، ويثور شوقه إليها ، ويدفعه الحنين إلى مرابعها فيسكب من هذا الإحساس النفسى على صورته ويدعو على نفسه بأن يبلى كما بليت تلك الأطلال إن لم يقف على ربعها وديارها متوجعا شاكيا كمن يبحث عن شىء غال وثمين قد ضاع منه وفقده وقد عاب النقاد على المتنبى هذا التشبيه وقالوا ، كم عسى هذا الشحيح أن يقف بالغا ما بلغ من الشح؟ والخاتم ليس مما يخفى فى التراب إذا طلب ولا يعسر وجوده إذا فتش .

وقال من دافع عن المتنبى من أنصاره إنه لم يرد التسوية بين الوقوفين فى الزمان والقدر والصورة وإنما أراد بالوقوف وقوفا زائدا عن حد الاعتدال كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف فى أمثاله وهو كقول الشاعر :

رُبَّ لَيْـلٍ أمَـدُّ مِـنْ نَفْـسِ العُـاَ شِـقُ طُـولاً قَطَعْتُـه بِانْتِحـاب

---

(١) الديوان ٣/٣٢٨ .

فليس المقصود قياس طول النفس على طول الليل بالغا ما بلغ وإنما المقصود أن الليل زائد فى الطول على مقادير الليالى كزيادة نفس العاشق على بقية الأنفاس[1].

وكما رأيت الشاعر يدعو على نفسه بأن يبلى بلى الأطلال إن لم يقف على ديار الأحبة فإنك تراه يدعو على الطلل نفسه والربع من خلال أمره لملث القطر بأن يمنع مطره وأن يعطش ربوعها وإن سقاها وأمطرها فليكن سما نقيعا مما لم يألفه الذوق العربى فى قوله[2] :

مُلِثَّ القَطْرِ أعْطِشَهَا رَبُوعاً وإلاَّ فَاسْقِهَا السُّمَّ النَّقيعَا

ويلاحظ أن التشبيه غير الصريح وغير المباشر يتردد كثيرا فى صور الرجل الجزئية وهو إن أعطى دلالة فإنما يدل على ملكة الشاعر التصويرية ، وقوته الإبداعية ، لأن اقتباس المشابهات فى مثل هذا التشبيه يحتاج إلى عقلية مدربة واسعة تملك من قوة التخييل مع عمق الفكر طاقة كبيرة وقد كان الرجل من هذا النوع النادر إذ إن الغوص على الحقائق ، وسبر أغوار الوجود واكتناه أسرار الطبائع مما تدرك بجهاد عقلى شاق وقد عرف بها الرجل ، وعرفت به وله رصيد مذخور من الحكم والأمثال تقصده قصدا ، وتأتى إليه منقادة طائعة كثمرة لتجاربه ، ونضجه ، وخبرته بالحياة ، والأحياء وثقافته وعقليته ، وهى تجارب عميقة وليست سطحية أو هامشية فمثل المتنبى ما كان يقبل وهو يفتش عن اللآلئ والجواهر إلا أن يغوص باحثا عنها فى القاع والأعماق ومع هذه القوة العقلية تجد عنده قوة تخييلية تجعله رأسا بين شعراء التصوير ، وهو يفتن فى خياله الذى يسكب منه على الأشياء فيراها فى غير لونها أو إن شئت فقل إنما يراها بعين الخيال المحلق وهى عين سحرية نافذة الرؤيا بعيدة النظرة تلون الحقيقة الواحدة بألوان مختلفة ، وأحجام متباينة .

وتبعث فيها روحا جديدة ، ونغما جديدا ، وتنقلها من حياة إلى حياة ومن حال إلى حال ، إن قوة التصوير عند الرجل وافتنان خياله وانطلاقته فى مسارحه هى التى جعلت التشخيص يشيع فى صوره حيث يفيض على الأشياء من ذات نفسه

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٤٧١ ، ٤٧٢ .

(٢) الديوان ٢/٢٤٩ .

ويفرغ عليها من أحاسيسه ويجعلها تشاركه فرحه ، وحزنه ، ونعيمه ، وبؤسه ، ورضاءه ، وسخطه فإذا بالحياة تدب فيما لا حياة فيه وإذا بالطبيعة والكوائن الأخرى تنتفض وتتحرك ، وتتكلم ، وتسمع ، وتشكو ، وتتوجع وتفرح ، وتحزن وعلى هذا النحو ترى الشاعر قد ذاب فيها بعد أن أضفى عليها من خصائصه ونفخ فيها من روحه وإذا هو وهى معا يلتقيان صديقين عزيزين وخليلين عاشقين يحس كل منهما بإحساس الآخر وبمثل هذا تراه يجسد ما لا وجود حسى له فإذا بك تراه وتحسه ، وتلمسه ، وتأنسه . كما قد يغير من طبيعة المحسوس ويجعله ضربا من المجردات والمعقولات وهو قليل فى شعره كقوله فى هذه الصورة التشبيهية العقلية المركبة[1] :

كَـأَنَّ سَـخَاءكَ الإِسْـلاَمُ تُخشَـى ... إِذَا مَـا حُلْـتَ عَاقِبَـةً ارْتِـدَادِ

كَـأَنَّ الْهَـامَ فِـى الهَيْجَـا عُيُـونٌ ... وَقَـد طُبِعَـتْ سُـيُوفُكَ مِـن رُقَـادِ

فتجريد المحسوسات وهو ثمرة من ثمرات الخيال يوجد فى شعر المتنبى وإن كان على قلة وهكذا ترى خيال المتنبى محلقا سارحا يريك العاطفة المتسربة فى القلب ، والخاطر المتردد : فى الذهن ، فى صورة دانية من حواسك قريبة من مداركك لا ترهقك ، ولا تكلفك إلا أن تفتح عينيك لتراها أو ترهف سمعك لتحس بها ، ولأن خيال الرجل منطلق سارح يتخطى قوانين العقل ومدارك البشر ترى أسلوب المبالغة وقد شاع فى شعره إذ إنها ضرب من ضروب الخيال يركز على الشىء فيضغطه ويقلل من مساحته وحجمه أو تكبيره والزيادة فى تلك المساحة وهكذا كان خيال المتنبى محلقا سارحا وكان فكره دقيقا عميقا منتظما وقد اجتمع الاثنان معا فى شعره على نحو يعز أن يوجد له نظير إلا عند المتنبى .

التشبيه الضمنى وتعليل كثرته :

لقد شاع عند الشاعر وذاع لسعى الرجل الدائب المستمر ، وراء المعانى الدقيقة . مع ولوعه باقتناص الحكمة النادرة ، وضرب المثل السائر مع انطلاقه للخيال تؤلف

---

(١) الديوان ١/٣٥٩ .

بين الأشياء وتجمع بين النظائر فى توافق وتلاؤم وانسجام وإليك طائفة من شعره كنماذج لهذا اللون البيانى عنده وقد تناولت بالتحليل كثيرا من صوره حين كانت تعترض طريقى فى البحث خذ قوله[1] :

كنْ أَيُّهَا السِّجْنُ كَيْفَ شِئْتَ فقد ... وَطَّنْتُ لِلْمَوتِ نَفْسَ مُعْتَرِفِ

لَوْ كَانَ سُكْنَاىَ فِيكَ مَنْقَصَةٌ ... لم يكن الدُّرُّ سَاكِنَ الصَّدَفِ

وقوله[2] :

فَلَوْ كُنْتَ امَرأً يُهْجَى هَجَوْنَا ... ولَكِنْ ضَاقَ فِتْرُ عَنْ مَسِيرِ

فقد جعله حقيرا لايؤبه له فهو أقل من أن يهجى ، لأن قدره لا يتسع للهجاء فهو كالفتر أضيق من أن يسير فيه أحد .

وقوله[3] :

خَرِيدَةٌ لَوْ رأتْهَا الشَّمْسُ مَا طَلَعَتْ ... وَلَوْ رآهَا قَضِيبُ البَانِ لَمْ يمسِ

وقوله[4] :

بِفَرْعٍ بعِيدُ اللَّيْلَ والصبحُ نَيِّرٌ ... وَوَجْه بعِيدُ الصُّبْحَ واللَّيْلُ مُظْلِمُ

وقوله[5] :

وجَدْتُ عَلِيّاً وابْنَهُ خَيْر قَوْمِهِ ... وَهُمْ خَيرُ قَوْمٍ واسْتَوى الحُرّ والعَبْدُ

وَأصْبَحَ شِعْرِى مِنْهُمَا فِى مَكَانِهِ ... وَفِى عُنُقِ الحَسْنَاءِ يُستَحْسَن العِقْد

وقوله[6] :

أَرِيقُكِ أَمْ مَاءُ الغَمامَةِ أمْ خَمْرٌ؟ ... بِفِىَّ بَرُودُ وَهْوَ فِى كَبِدِى جَمْرُ

وقوله[7] :

هُمَامٌ إذا مَا فَارَقَ الغِمْدَ سَيْفُهُ ... وَعَايَنْتَه لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا النَّصْلُ؟

---

(١) الديوان ٢/٢٨١ .
(٢) المرجع السابق ١/١٤٤ .
(٣) المرجع السابق ٢/١٨٧ .
(٤) المرجع السابق ٤/٨٢ .
(٥) المرجع السابق ٢/١٠ .
(٦) المرجع السابق ٢/١٢٣ .
(٧) المرجع السابق ٣/١٨٦ .

وقد تجده يستثمر التشبيه الضمنى للتلميح بما لا يريد أن يصرح به فى التعبير المباشر ، فهو يستطيع من خلاله أن يمثل خواطره وأن ينقل فكرته ، وحاجته من خلال هذا الأسلوب انظر إلى قوله[1] :

وَمِـنَ الخَيْـرِ بُـطْءُ سَـيْبِكَ عَنّـى أَسْرَعُ السُّحْبِ فِى المَسِيرِ الجَهَامُ

إن الشاعر يريد أن يفضى إلى ممدوحه برغبته فى نيل عطائه فلا يصرح له بها تصريحا ، وإنما يلمح له بها تلميحا فاستثمر طاقة اللغة ومرونتها وقدرتها على التشكيل وأبدع منها صورته الذى جعل المعنى الصريح فيها يتوارى وراء هذا الأسلوب غير المباشر ، والذى يلمح له فيه بما لم يصرح به فطار إلى السحب وانطلق نحوها لينتزع منها هذا التمثيل الرائع وأراك من خلال القياس والموازنة بين السحب التى تحمل المطر وبين التى تحول دون هطوله بطء الأولى مع ما فيها من خير ، وسرعة الثانية مع قلة هذا الخير وندرته ، ودلل بهذه الحالة على حمده لبطء عطاء الممدوح وتريثه لأن فى تأخيره كثرته وتدفقه إن المعنى المباشر هنا فى هذا التشبيه قد أشار إلى المعنى الخفى وأوحى به .

والمتنبى مصور بارع تراه يجسد معانيه وأفكاره فى صور محسوسة .

كما فى قوله[2] :

والـذِّى قَطَّـعَ الرِّقَـابَ مِـنَ الضَّـرْ بِ بِكَفَّيْـكَ قَطَّـعَ الآمَـالاَ

فها أنت ذا ترى الآمال وهى مجسدة أمامك والشاعر يقطعها تقطيعا بسيفه الماضى الصقيل كما قطع الرقاب وجذها بالضرب فالمعنوى يتجسد ويجرى عليه ما يجرى على المجسدات ، وفى تقطيع الآمال هنا دلالة أخرى غير الدلالة الحسية ترمز إلى غروب شمس هؤلاء الذين لحقت بهم الهزيمة وضياعهم ، وأفول نجمهم . وانظر إلى هؤلاء القوم الذين قطع السيف آمالهم وقد صنع فيهم الرعب والخوف ما صنع ، بعد أن قاوموا ، ولم يستطيعوا الثبات فانهاروا وضعفوا وتخاذلوا[3] :

وَإِذَا حَاوَلَـتْ طِعَانَـكَ خَيْـلٌ أَبَصَـرَتْ أَذْرُعَ القَنَـا أَمْيَـالاَ

---

(١) الديوان ٤/١٠٠ . (٢) المرجع السابق ٣/١٤٠ .

(٣) المرجع السابق ٣/١٤١ ، ١٤٢ .

بَسَطَ الرُّعْبُ فِي اليَمِينِ يَمِينَا فَتَوَلَّوْا وَفِي الشِّمَالِ شَمَالاَ
يَنْفُضُ الرَّوْعَ أَيْدِيًا لَيْسَ تَدْرِي أَسُيُوفًا حَمَلْنَ أَمْ أَغْلاَلاَ؟
وَوُجُوهًا أَخَافَهَا مِنْكَ وَجْهٌ تَرَكَتْ حُسْنَهَا لَهُ والْجَمَالاَ

ففى البيت الأول تبدو روح المقاومة ولكن الخصوم يعجزون عن الاستمرار فيتهاوون ويتساقطون بعد أن يزلزل الرعب الأرض تحت أقدامهم ويملأ الخوف قلوبهم فيصور لهم الوهم أن رماحه كالأميال وأنها ستطولهم ، وتفتك بهم قبل أن يصلوا إليه وفى ذلك كناية عن شدة الخوف فى قلوبهم وسيطرة الرعب والفزع عليهم إلى حد يفوق الخيال والوصف .

وفى البيت الثانى أراك الرعب وقد امتد ، واتسع حتى استقر فى أيمانهم وشمائلهم فصارت كلها وكأنها الرعب ذاته متجسما فيها ومتجسدا فكيف يقاتلون بأيد هذا شأنها؟ ومتى وأين كان الرعب داعية ثبات وتجلد؟ انظر إلى قوله : بَسَطَ الرُّعْبُ فِى اليمينِ يَمِينَا . . . . إلخ .

مما تشعر معه امتداد الرعب واتساعه حتى صار موصولا بأيديهم حالا فيها . وكيف رتب على هذا تقهقرهم وهزيمتهم وفرارهم .

وانظر إلى هذه الأيدى فى البيت الثالث وقد حل الرعب فيها واتخذها مستقرا أو مقاما كيف تنتفض وترتعش بعد أن أصابتها رعدة الخوف وهزة الهلع؟ وكيف تتساقط السيوف منها نتيجة لرعشتها ، واهتزازها وكيف لا تستطيع أن تمتد بها كما لا يستطيع الذى غله القيد ومنعه أن يمد يده ؟

وهكذا ، جسد الشاعر الآمال والرعب وجعلهما منتصبين أمامك ، وأراك الآمال وهى تتقطع بالسيوف كما تتقطع الرقاب بها ، كما أراك الرعب والفزع وقد صارا محسوسين مجسدين وكيف أضعفا من روح المقاومة وكيف أعانا على السقوط والانهيار وهذا ما قد حدث .

هذا وقد تحكى الصورة الرؤية النفسية من خلال التصوير خذ قوله[1] :

فَوَلَّى بِأَشْيَاعِهِ الخَرْشَنِيْ كَشَاءٍ أَحَسَّ بِزُأْرِ الأُسُودِ

---

(١) الديوان ١/٣٤٤ .

يُـرَوْنَ مِـنَ الـذُّعْرِ صَـوْتَ الرِّيـاح صَـهِيلَ الجِيـاد وخَفْـقَ البُنـودِ

فالصورة التشبيهية متصلة بالإحساس ، ومعبرة عن الموقف النفسى وفى البيت الأول أراك الشاعر صورة لفرار الخرشنى وذعره وفزعه وهربه ورأى فى فراره وهربه حين أحس بمقدم الجيش المنتصر ما يحدث للشياه حين تحس بزئير الأسود ، من الهلع ، والخوف ، والفرار .

وفى البيت الثانى ترى كيف تحكى الصورة الرؤية النفسية للهاربين كالشياه . وقد صور لهم الهلع ، والفزع أن كل شىء حولهم قد تحول إلى أداة قتل لهم وتدمير لقد صارت الطبيعة خصما لهم يتعقبهم فى هربهم وفرارهم ليعمل فى رقابهم سيفه ، وهكذا أراك صوت الرياح يرن صداه فى الفضاء العريض وفى الأفق الرحب فيحدث دويا وطنينا يخيل للهاربين أنه دوى الخيل الصاهلة ، وصوت الرايات الخافقة فالتشبيه يمثل الرؤية النفسية للهاربين فى ذعرهم وفزعهم والصور التشخيصية كثيرة كثيرة فى شعر الرجل ولقد وقفت أمام كثير منها محللا ، ودارسًا دوافعها وبواعثها والعوامل النفسية وراءها وتظهر فى مخاطبة الأطلال وندائها ومحادثة الربع ومناجاته وحديث الحصان وسماعه منه وغير ذلك كثير مما تراه فى مخاطبة من لا يخاطب وسؤال من لا يسأل وترى الصورة التشخيصية فى مثل قوله[1] :

طَلَبْـتَهُمْ عَلَـى الأَمْـواهِ حَتَّـى تَخـوَّف أن تُفَتِّشَـهُ السّـحابُ

إذ إنه يتحدث عن ملاحقة سيف الدولة للخارجين عليه من قبيلة بنى كلاب وظفره بهم ، وانتصاره عليهم ، وتأديبهم ، ولقد أراك كيف طاردهم وسار وراءهم قبل ظفره بهم يبحث عنهم فى كل مكان حتى لقد خاف السحاب وذعر من أن يصير عرضة للتفتيش وهكذا خلع الحياة على السحاب وجعله خائفا مذعورا .

ثم انظر إلى هذا التشخيص العجيب حين يريك الهلوع وهو يؤمر فيطيع ، ويسير كما تسير الجيوش ، ويتحرك كما تتحرك .

---

(١) الديوان ١/٧٦ .

وذلك فى قوله[1] :

إذَا مَـا لَـمْ تُسِـرْ جَيْشًـا إلَـيْهِمْ أَسَـرْت إلَـى قُلُـوبِهِمُ الهُلُوعـاَ

فالهلوع هو الخوف يصير إلى ما ترى متحركا مسيرا مقتحما وتشخيصه للموت وهو يتخطف الأرواح وسيف الدولة واقف باسم كأنما أمن من الدهر حين اختفى فى جفن الردى والردى نائم مطبق العينين مما هو ذائع مشهور فى قوله[2]:

وَقِفْتَ وَمَا فِى المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِى جَفْنِ الرَّدَى وَهْو نَائِمُ

تَمُر بِكَ الأبْطَال كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

وانظر إلى هذه الصورة التى رسمها للحمى بعد أن طاف حولها خياله وصورها وهى زائرة بغيضة فى صورة الغادة العاشقة التى تتسلل إلى مخدع عشيقها فى ظلام الليل وحلكته فيبذل لها خير ما عنده من المطارف والحشايا ولكن دلالها يجعلها ترفض كل هذا وتأبى إلا أن تنام فى عظامه وحين يضيق جلده عن نفسه وعنها تحتال فى توسعته بأنواع من السقام حتى يتسع لهما ، ثم انظر ماذا تصنع حين تريد المفارقة إنها تغسله وتطهره من سقطة الليل الآثمة وحين تتسلل أضواء الفجر وتبدأ مطاردتها من الصبح ترى دموعها وهى تجرى منهمرة من أثر الفراق ثم يعاودها الحنين إلى مخدع العشق .

فتعود والرجل يراقب وقتها فى غير شوق مراقبة المشوق المستهام فهو فى ترقبها مشتاق وغير مشتاق إذ يضطرب مكروبا مهموما وإن بدا اضطرابه فى صورة الواله المعشوق وفى النهاية يتجه إلى تلك الزائرة معاتبا إذ كيف وجدت طريقا تنفذ من خلاله إليه . . وهو الذى تتزاحم عليه بنات الدهر فى كثرة مضنية ومرهقة ثم هلا وقفت حين أتته زائرة فلم تجرح ولم تصب وهو الذى امتلأ جسده بالجراح فلم يعد فيه مكان سليم يتسع لجرح جديد انظر إلى الأبيات[3]:

وَزَائِرَتِـى كَـأَنَّ بِهَـا حَيَـاءً فَلَـيْسَ تَـزُورُ إلاَّ فِـى الظَّـلاَمِ

---

(١) الديوان ٢/٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق ٣/٣٨٦ ، ٣٨٧ .

(٣) المرجع السابق ٤/١٤٦ ، ١٤٧ .

بَـذَلْتُ لَهَـا المَطـارِفَ والحَشَـايَا ... فَعَافَتْهَـا وَباتَـتْ فِـي عظـامِي
يَضِـيقُ الجِلْـدُ عَـنْ نَفْسِـي وَعَنْهَـا ... فَتُوسِـعُه بَـأنواع السِّـقَامِ
إِذَا مَـا فَـارَقَتنى غَسَّـلَتنى ... كَأَنَّـا عَاكِفَـانِ عَلَـى حَـرَامِ
كَـأَنَ الصُّـبْحَ يَطْرُدُهـا فَتَجْـرِى ... مَـدَامِعُها بِأَرْبَعَـةٍ سِـجَامِ
أراقِـبُ وَقتَهَـا مِـنْ غَيْـرِ شَـوْقٍ ... مُراقَبَـةَ المشُـوقِ المُسْـتَهَامِ
وَيَصْـدقُ وَعْـدُهَا والصَّـدْقُ شَـرٌّ ... إِذَا أَلْقَـاكَ فِـى الكُـرَبِ العِظَـامِ
أَبِنْـتَ الـدَّهْرِ عِنـدِي كُـلُّ بِنْـتٍ ... فَكَيْـفَ وَصَـلْتِ أَنْـتِ مَـنِ الزِّحَـامِ
جَرَحْـتِ مُجَرَّحًـا لَـمْ يَبْـقَ فِيـهِ ... مكَـانٌ لِلسُّـيُوفِ ولاَ للسِّـهامِ

وكم كنت أتمنى أن يكون لى أسلوب عبد القاهر وألمعيته لأكشف عن وجوه الحسن فى هذا التصوير ولئن فاتتنى القدرة فلن يفوتنى التنبيه أرأيت إلى التشخيص الذى جعل من الحمى زائرة عاشقة تذهب ، وتجىء وتسلل فى الظلام ، وتقبل وترفض ، وتنام ، وتصحو ، وتبكى ، وتغسل ، وتصدق فى الوعد ولا تكذب . وتطارد وتخاطب ، وتسأل وتلاقى ، وتفارق وتخجل ، وتستحى ، وهكذا مما استطاع الشاعر معه أن يخادعك به ويوهمك أن الزائرة هنا زائرة حقيقية وظللت على ذلك حتى كشف لك النقاب ونبهك من بعيد إلى حقيقة تلك العاشقة حين عافت المطارف ، والفراش الوثير وأبت إلا أن تبيت فى عظامه وأرى أن تعدد الصور الجزئية حول موضوع واحد فى تلك اللوحة الفنية يقربها من الصورة المركبة الكلية التى تتلاحق فيها الصور وتتابع شارحة لفكرة واحدة ، أو موضحة لها بحيث تتلاحم كل الصور وتتلاقى لتقدم فى النهاية تفسيرا للفكرة الأم التى دارت من حولها كل تلك الجزئيات والفرعيات مع ارتباط بعضها ببعض بخيط نفسى وشعورى مع ملاحظة أنه لا اعتبار ولا وزن لكل صورة جزئية مستقلة ما لم ترتبط بالفكرة الأم ويلاحظ أن أكثر ما يستثير التصوير عند المتنبى ويحرك من انطلاق خياله وتحليقه وتجنيحه هو ما يتصل بالحرب وآلاتها والبادية وحيواناتها مع ربط كل هذا بشعوره النفسى وبإحساسه الداخلى من التغنى بآماله وآلامه وأفراحه وأحزانه وإبراز ذاتيته بكل ما يتصل بهذه الذات من طموح ، وأنانية ، وطمع ، وذكاء ، وعلو همة . . . إلخ

كل هذا أغرى خياله الشعرى وحثه على التحليق فى الآفاق التى يراها بعينى قلبه وطمعه مما جعله مثلا يقول فى صورة تبدو منها روح العناد والمغالبة والمطاردة[1] :

أَهـــمَّ بِشَـــىء واللَّيَـــالَى كَأَنَّهـــا تُطَـــارِدُنِى عَـــنْ كَوْنِـــه وأُطَـــارِدُ

وهكذا تراه فى هذه المطاردة المثيرة التى تشعرك أن الرجل وكأنه يريد أن يمتلك الدنيا ولكنها تقف أمامه تطارده وتحطم على صخورها آماله وأحلامه .

وليس بمتعذر على من يقرأ أشعار الرجل أن يجد خاصة فى سيفياته وحربياته (وهى من أكثر وأعظم وأضخم ما أنتجه الرجل) خيالا نشطا محلقا يستثيره هذا النوع من المواقف لأنه يصادف هوى فى فؤاد الرجل ، ورغبة نفسية ملحة على تسجيل هذا النوع من المواقف والموضوعات ورصد كل ما يتصل بها ، ومعايشتها والالتحام بمعامعها فذلك ما يجد فيه نفسه أن يظهر همته همة القائد الشجاع الجسور الذى يريد أن يروى سيفه من دماء الرجال وأن يعمله فى الرقاب والأعناق وأن يرى بحور الدم وهى تفيض وتتدفق ، وأن يرى الرءوس وهى تنفصل عن الأجساد والرقاب وهى تجتذ بالسيوف ، وبيض السريحيات التى ترى غامضات القلوب فلا تستقر إلا فيها ، ولا تسكن غيرها وهكذا من وصف آلة الحرب والدمار انظر إلى ما يتصل بحركة الجيش وملاحقة الخيال لها وذلك فى قوله[2]:

فِى فَيْلَقٍ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ قَذَفْتَ بِه صَرْفَ الزَّمَـان لَمَـا دَارَت دَوَائُـرِهُ

وانظر إلى تركيزه على الحركة فى ملاحقة بنى كلاب[3] :

طَلَبْـتُهُمْ عَلَـى الأمْـواهِ حَتَّـى تَخَـوَّفَ أنْ تُفَتِّشَـهُ السَّـحَابُ
فَبِـتَّ لَيَالِيًـا لاَ نَـومَ فِيهَـا تَخُـبُّ بِـكَ المُسَـوَّمَةَ العِـرَابُ
يهـز الجَـيْشُ حَوْلَـكَ جَانِبَيْـه كَمَـا نَفَضَـتْ جَنَاحَيْهَـا العُقَـابُ

فأنت تلمس الحركة التى ركز الشاعر عليها خياله من خلال طلبه لهم على الأمواه وسعيه وراءهم فى كل مكان سعيا أصاب السحاب بالذعر والخوف حتى خاف من التفتيش وعلى هذا النحو مضت المسومة العراب ليالى وأياما تخب به .

---

(١) الديوان ١/٢٧٠ .
(٢) المرجع السابق ٢/١١٩ .
(٣) المرجع السابق ١/٧٦ .

وفى البيت الثالث : ترى التّشبيه التمثيلى الحسى الذى يحكى لك عظمة سيف الدولة وأبهته ، وقوة جيشه وهو يمضى ويتحرك بهذا الجيش الذى يهتز عن جانبيه وتكاد ترى الأرض وهى تميد به من قوته وتضطرب ويلتمس لهذه الحركة نظيرا فى العقاب الطائر ترفرف أجنحته عن يمين وعن شمال فى هيئة تروق وتعجب وهكذا أراك الحركة المتموجة لهذا الجيش العرمرم المندفع فى سرعة ، والمتحرك فى قوة حين مثلها بهيئة هذا العقاب الذى ينفض جناحيه فى الجو فى حركة مستمرة منتظمة .

وانظر إلى حركة هذا الجيش الذى صار بحرا فى كثرته ، وتموجه وتدافعه وما تؤكده كلمة عباب من هذا التموج الذى انتقل إلى جانب الجيش ليثبت له هذه الحركة المضطربة المتتابعة المتموجة .

وأحيانا يتحدث عن الجيش الذى يثير النقع كثمرة لتحركه واندفاعه ويسلط خياله على الحركة ويكنى عن كثرة الجيش بما يثيره من النقع الكثيف الذى يغتال ضوء النهار انظر إلى قوله[1] :

وَالْبَاعِثُ الجَيْشَ قَدْ غَالَت عَجَاجَتُهُ ضَوْءَ النّهَارِ فَصَار الظُّهْرُ كالطَّفَلِ
الجَوُّ أَضْيَقُ مَالاَقَاهُ سَاطِعُهَا ومُقْلَةُ الشَّمْسِ فِيهِ أحْيَرُ المُقُلِ
يَنَالُ أَبْعَدَ مِنْهَا وَهِى نَاظِرَةٌ فَمَا تُقَابِلُهُ إلاّ عَلَى وَجَلِ

فأنت ترى الجيش يندفع فى قوة ، ويتحرك فى سرعة فيثير العَجَاجَ الكثيف الذى يغتال ضوء النهار ويذهب بضيائه وإذا كان العجاج قد وصلت كثافته إلى أن يمنع ضوء الظهر ويحجب إشراقة النهار ، فلابد أن تكون كثافته منبعثه عن جيش كثير العدد شديد السرعة وهكذا ترى التصوير يتكثف ويتزاحم ما بين تشبيه وكناية واستعارة .

ثم انظر إلى ساطع العجاجة كيف يضيق الجو على سعته به فأى عجاج هذا الذى بلغ من الكثافة والكثرة حدا ضاق به الفضاء الرحب وعجز عن احتوائه ؟

ثم انظر إلى مقلة الشمس الحائرة لأن ضوءها يرتد إليها من كثافة العجاج ولا يخترقه لقربها منه ودنوها وحين يعود إليها فإن أضواءه تنعكس على مقلتيها وتنكسر عليها فتصاب بالارتباك والحيرة .

---

(١) الديوان ٣٨/٣ .

ثم انظر إلى هذا العجاج وهو يصعد ويصعد حتى يعلو فوق الشمس ويرتفع وهى تحاول أن تطوله ولكنها تعجز ولا تستطيع وهذا كله كناية عن كثرة الجيش ، وعظمته .

وانظر كيف عبر الشاعر فى مكان آخر عن كثافة الغبار الذى تثيره حوافر الخيول فإذا رأيته فى الأبيات السابقة وهو يغتال ضوء النهار ويضيق الفضاء الرحب به وتحتار مقلة الشمس بسببه ، ويعلو فوقها محلا ولا تستطيع أن تلاحقه فإنه صور الغبار فى كثافة جعلت الجيش يختفى فيه ويضل لولا ما عليه من خوذات ومغافر وجعلت العقبان وهى تحلق فى الفضاء تعثر به فتتعثر وهكذا صار الجو من كثرة العجاج وكأنه رمل متناثر مع غبار متطاير يرقى قوله[1] :

تُثِيرُ عَلَى سَلْمَيَةَ مُسَيطِرا تناكر تحفه لولا الشِّعَارُ
عَجَاجاً تَعْثُر العِقْبَان فِيهِ كَأَنَّ الجَوَّ وعْثٌ أو خَبَارُ

وهذا كله كناية عن كثرة الجيش وقوة حركته .

بمثل ما يركز خياله على الحركة أو الحركة والكثرة تراه يعتد بالمظاهر اللونية وينقلها إلى صورة كما فى قوله[2] :

وَأرعنٍ لَبِسَ العَجَاجُ إلَيْهِمُ فَوْقَ الحَدِيدِ وَجَرَّ مِنْ أَذْيَالِهِ

وهكذا أراك الجيش وهو يندفع فى تحركه فيثير الغبار الذى تظلم معه الدنيا والذى يغطى الجنود فيصير كاللباس فوق الحديد . فالخيال هنا مركز على لون العجاج يلبسه المقاتلون فوق الحديد ومثله قوله[3] :

يَعَافُ خِيَامَ الرَّيْط فِى غَزَواتِهِ فَمَا خَيمُه إلاَّ غُبَارُ حُرُوبِ

وهكذا أراك الممدوح وهو يعاف خيام الريط ويرفضها ويأبى إلا أن تكون خيامه من الغبار المثار فى مواطن القتال وقد ترى هناك مزجا متناسبا بين الألوان كما فى قوله[4] :

إذَا صَرَفَ النَهَارُ الضَّوْءَ عَنْهُمْ دَجَاً لَيلاَنِ لَيْلٌ والغُبَارُ
وَإنْ جُنْحُ الظَّلاَمِ انْجَابَ عَنْهُمْ أضاء المشربية والنهار

---

(١) الديوان ٢/١٠٣ .
(٢) المرجع السابق ٣/٦٣.
(٣) المرجع السابق ١/٥٤.
(٤) المرجع السابق ٢/١٠٥ .

وقد تراه يستمد خياله من عالم السحب والسماء كما فى قوله[1] :

كَـــأَنَّ نِقَابَهَـــا غَـــيْمٌ رَقِيـــقٌ يُضِـــيءُ بِمَنْعِـــهُ البَـــدَر الطُّلُوعَـــا

كما تجده يذهب إلى المرأة متغزلا ويأتى غزله مصورا للمظاهر اللونية كما فى قوله[2] :

سَـفَرتْ وَبَرْقَعَهَـا الحَيَـاءُ بِصُـفْرةِ سَـتَرَتْ مَحَاسِـنَهَا ولَـمْ تَـلكُ بُرقُعَـا

فَكَأَنَّهَـا والـدَّمْعُ يَقْطُـرُ فَوقَهَـا ذَهَـبٌ بِسِـمْطَى لؤلـؤٍ قَـدْ رُصِّـعَا

كَشَـفَتْ ثَـلاَثَ ذَوَائِـبٍ مِـنْ شَـعْرِهَا فِـى لَيْلـةٍ فَـأَرَتْ لَيَـالِيَ أَرْبَعَـا

وَاسْـتَقْبَلَتْ قَمَـرَ السَّـمَاءِ بَوَجْهِهَـا فَـأَرَتْنِى القَمَـرَيْنِ فِـى وَقْـتٍ مَعَـا

ومن خياله فى الدموع قوله[3] :

وَكُلَّمَـا فَـاضَ دَمْعِـى غَـاضَ مُصْـطَبَرِى كَـأَنَّ مَـا سَـالَ مِـنْ جَفْنَـىَّ مِـنْ جَلَـدِى

وهكذا أراك دمعه وهو يتساقط وجعل صبره رافدا يمد عيونه بالدموع وهو يتناقص مع انهمارها من جلده .

والخلاصة :

أنك طفت مع خيال الشاعر المصور فى آفاقه التى ارتادها ، وحلق فى أجوائها ووقع عليها ورأيته مفتنا يصور بالكلمة وبالعبارة وبالحركة وباللون كما رأيت صوره تتطابق مع صاحبها وتمثله فى رضاه ، وغضبه وفى فرحه ، وحزنه ، فى يأسه ورجائه ، ورأيت صوره الجزئية تمثل أحوال نفسه وما يتوارد عليها من ضيق ، وفرح ، وحدة ، وثورة ، وهو فى كل ما صور لم يكن بعيدا عما صوره وإنما ظلله بالظلال النفسية التى تعكس نفسه ورغبته ومطامعه فيها ومن خلالها كما رأيت صوره الجزئية تتجمع كلها حول فكرة هى كالأم لها تلتف حولها شارحة وموضحة ويرتبط بعضها ببعض بخيط نفسى ، وشعورى كما رأيت خياله يركز على المحسوسات فيجردها أو المعقولات فيجسدها ويتفاعل معها فى توافق وتواؤم وانسجام .

* * *

---

(١) الديوان ٢/٢٥٢ . (٢) المرجع السابق ٢/٢٦٠ . (٣) المرجع السابق ١/٣٥٠ .